الجمعية الفقهية السعودية
الجمعيّة الفقهيّة السعوديّة
أوراق المناشط العلمية

الملكة الفقهية

حديث إلى معلم الفقه ومتعلمه

لقاء علمي قدمه فضيلة الشيخ

د. عبدالله بن فهد القاضي
الأستاذ المشارك بكلية التربية بجامعة الملك سعود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وعليه وعلى آله وصحبه به وسلم تسليما أما بعد:

اللهم اجعلنا من المتجالسين فيك الذاكرين لك اللهم نور قلوبنا بحكمتك واجعلنا بفضلك من ورثة نبيك.

أيها الكرام تجمعنا في هذه الساعة جامعة خير ورشد ألا وهي الملكة الفقهية، تلك السمة الشريفة التي يرومها كل ذي نفس كريمة والتي يهبها الله تعالى من أراد به خيراً (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين).

سيدور الحديث إن شاء الله في هذا المجلس على سؤالين هما ما الملكة الفقهية؟ وكيف تصنع الملكة الفقهية؟ سأجتهد مستعينا بالله تعالى في أن أتحدث بما له ثمرة علمية.

أول ما يتحدث به في هذا المقام هو التعرف على الملكة، فالملكة في الاصطلاح: هي الصفة الراسخة في النفس، فكل صفة راسخة في نفسك هي ملكة، عاداتك أخلاقك المستقرة في نفسك المهارات التي يزاولها أصحاب المهن والحرف مهارة الخياط مهارة الطبيب مهاراتك التي تزاولها في يومك وفي معيشتك قيادة السيارة الكتابة السريعة على الحاسب الآلي، كل هذه الصفات اذا أصبحت راسخة في نفسك سميت ملكة، فهذا هو الأصل في معنى الملكة، ومن عبارات العلماء في توصيف حقيقة الملكة قول الطاهر ابن عاشور رحمه الله نعني بالملكة أن يصير العمل بتعليمات العلم كسجية للمتعلم لا يحتاج معها إلى مشايعة القواعد، أنا عندي علم بقواعد النحو هذه معلومات لكن اذا أصبح العمل بقواعد النحو سجية لا أحتاج معها الى استحضار قواعد النحو فقد صار النحو وصار الإعراب مثلا ملكة، إذن هذه هي الملكة.

مما يزيد تصورنا للملكة بيانا ووضوحا أن نستفيد مما ذكر في علم النفس التربوي عن المهارة، فما يسميها الأصوليون ملكة يسميه أصحاب علم النفس التربوي المهارة، يذكرون أن للمهارة خصائص هي حقيقة خصائص الملكة، فمنها أنها تكتسب بالمعرفة مع المزاولة، الملكة تكتسب بأمرين معرفة وما نعبر

عنه بالدراسة النظرية مع مزاولة وتدقيق، أيضا صاحب الملكة او صاحب المهارة يستطيع القيام بها بتلقائية وعفوية، تلقائية أي بلا استحضار بلا تذكر وبعفوية.

أيضا من سمات وخصائص المهارة أو الملكة قدرة صاحبها على أدائها في الأحوال الصعبة والمتغيرة.

من خصائص المهارة أيضا ثقة صاحب المهارة بأدائه وزوال مشاعر التردد والتوتر.

من خصائص المهارة أيضا زيادة المرونة في الأداء والقدرة على توقع النتائج نتيجة للتأهب للظروف والشروط والمواقف المتغيرة ونقص الشعور بالمفاجأة أثناء الأداء، إذن هذه أيها الكرام هي خصائص الملكة وهي خصائص المهارة.

هذا ما يذكر في علم النفس أما عند الفقهاء إذا أردنا أن ننظر إلى الملكة الفقهية، فينبغي أن نضيف من خصائصها خصيصتان هما: التدرج، والتجزؤ، ونعني بذلك أن الملكة الفقهية يمكن أن نعبر بعبارة الفقهاء أنها جنس تحتها أنواع من الملكات، فليست الملكة الفقهية جملة واحدة او جزءاً لا يتجزأ، بل الملكة الفقهية اسم جامع لأنواع من الملكات وكل نوع من هذه الملكات له مراتب ودرجات، فائدة التنبه إلى هذا أن يعلم الطالب أن قصوره عن ملكة الاجتهاد المطلق التي هي عليا درجات الملكة لا يحول بينه وبين أن يبلغ درجةً ملائمةً ومناسبةً لقدراته ويكون قد بلغ وحصل ملكة فقهية يشارك فيها في حمل رسالة الله سبحانه وتعالى وتبليغ الفقه في الدين.

مما يدور في مجال التعريف بالملكة الفقهية أن نتذكر وأن نتعرف على المرادفات لمصطلح الملكة، فكلمة الملكة ليست قديمة في الاستعمال في لسان السلف والفقهاء، فهي اصطلاح استعمله أولا أصحاب العلوم العقلية ثم نفذ إلى العلوم الشرعية ماراً من علم المنطق ثم توطن في أصول الفقه فأصبح كلمة دارجة في شروط المجتهد، لكن مدلول الملكة أمر حاضر في كلام السلف الأول وفي كلام من بعدهم، ففي صدر هذه العبارات التي تؤدي معنى الملكة الفقه.

الفقه وحده كافي في أداء مدلول الملكة، فالفقه هو الفهم وهو مصدر لفقه يفقه فقها يفقه قالوا إذا صار الفقه سجية له، وصاحب هذه السجية هو الفقيه، وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم: (رب حامل فقه ليس بفقيه) إشعار بالفرق بين حمل الفقه وحفظ الفقه ورواية الفقه ونقل الفقه وبين الفقه

ذاته، إذن الفقه في حقيقه الأمر هو الملكة، وقال الفقهاء في التعبير عن الملكة الفقهية قولهم فقيه البدن فقيه النفس فقيه الطبع، لقد كان الاقتصار على كلمة الفقه والفقيه كافيا في الدلالة على الملكة بحسب اللغة لكن التجوز الذي وقع في استعمال اسم الفقه والترخص في إطلاق اسم الفقيه على من يحفظ مجرد الفروع، وإن لم يكن عارفا بمآخذها دعا العلماء إلى الاحتراز وتقييد الفقه بإضافته إلى النفس، أي أنه كان في أول الإسلام والناس إذ ذاك على أصل اللغة وعلى حقيقتها لا يقال فقيه إلا لمن كان فقيها، لكن حدث بعد ذلك توسع وتجوز فأصبح يطلق على حافظ الفقه ومن روى جملة من الفقه يقال له فقيه، فهذا اضطر العلماء إلى أن يقيدوا إذا أرادوا الإشارة إلى من عنده ملكة الفقه فيقولون فقيه البدن فقيه النفس فقيه الطبع.

أيضا من العبارات المعبرة عن الملكة: العلم. العلم وحسب، فاذا قيل عالم هل معنى أنه ذو ملكة في العلم، وهذا من العبارات الشريفة الدالة على أيضا الرسوخ، فالرسوخ في اللسان العربي هو الثبات والتمكن والراسخ في العلم هو المتحقق به الذي لا يعرضه شبهة، ومن مزايا هذا الاستعمال مجيئه في القرآن، وذلك في قول الله تعالى: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾النساء ١٦٢ وفي آية أخرى ﴿والراسخون في العلم يقولون﴾ آل عمران ٧ إذن الراسخ والرسوخ هي إحدى العبارات المعبرة عن الملكة.

إذن هذا عرض لمعنى الملكة مطلقا، ملكة الفقه وغير الفقه، وأيضا إشارة الى العبارات التي استعملها سلفنا للتعبير عن الملكة.

الآن نريد أن نخلص إلى ملكة الفقه من بين سائر الملكات فيمكن أن نعرف الملكة الفقهية في الاصطلاح بأنها: **القدرة الراسخة في النفس التي يتمكن بها صاحبها من معرفة الأحكام الشرعية وتنزيلها على الوقائع** .القدرة الراسخة في النفس هذا جنس يشمل الملكات كلها، لأنه مر بنا أن الملكة في نفسها هي كل قدرة راسخة في نفسك، فإذا ما قيدنا هذه القدرة الراسخة بقولنا إنها التي يتمكن بها صاحبها من معرفة الأحكام الشرعية وتنزيلها على الوقائع فقد خرجت سائر الملكات وبقيت الملكات الفقهية، والحقيقة أن ثمة تعريفات للملكة الفقهية، لكن مما يلحظ على بعض هذه التعريفات، أنها غير جامعة كيف ذلك، أنها نظرت إلى ملكة الاجتهاد المطلق فعرفت الملكة الفقهية بما يختص بأعلى درجاتها وهي ملكة الاجتهاد المطلق وبذلك خرجت ملكات كثيرة، فمن المعلوم أنه ليس

كل الفقهاء يبلغون درجة الاجتهاد المطلق، ولكن كل الفقهاء الحقيقيين لديهم ملكة الفقه، ولذلك إذا عرفنا بعبارة "يتمكن صاحبها من معرفة الأحكام الشرعية" كلمة "معرفة الأحكام الشرعية" هذه كلمة ذات عموم فتشمل التي بالتقليد وتشمل أيضا ما لا تتم هذه المعرفة إلا به من الملكات الكثيرة التي سيأتي إن شاء الله شيء من الإشارة إليها، وهذا التعريف للملكة الفقهية يشير إلى أن الملكات الفقهية تنشعب شعبتين، الشعبة الأولى هي معرفة الحكم الشرعي، معرفة ما شرع الله عز وجل، والشعبة الثانية تنزيلها على الوقائع، فهذان هما نوعا الملكات الفقهية.

هذا التعريف يقرب لنا تصور الملكة الفقهية، مثلا لو أن مشتغلا بالتعليم الفقهي يريد أن يدرب طلابه أو أن يعمل منهجا تعليميا او نظاما تعليميا يدرب على الملكات الفقهية، فإنه سيحتاج الى معرفة أفراد الملكات الفقهية، معرفة أفراد الملكات الفقهية أحسب أنه هو أشق أمر في بحث الملكات، كيف ذلك؟ أولال :أن الملكات الفقهية كثيرة فمن يريد تتبعها والإحاطة بها فقد رام أمرا عسيرا .ثانيا: الملكات الفقهية مستترة، وذلك أنه مثلا من الملكات الفقهية ملكة القياس، القياس اسم فيه من الملكات ومن دقائق الملكات الشيء الكثير. إذن حينما أريد أن أتتبع الملكات حينما أريد أن أتمرن على الملكات حينما أريد أن أدرب على الملكات، فأنا أمام ملكات بينها عموم وخصوص، فلذلك التتبع والإحاطة بها أمر فيه عسر، أيضا الملكات بينها شيء من التداخل، وقبل ذلك يقال إن ضابط الملكة الفقهية أمر خفي قبل أن ندخل في أنها كثيرة وأن بينها عموم وخصوص قبل ذلك ما معنى ملكة فقهية، الحقيقة حينما يحاول الإنسان أن يضع ضابطاً جامعاً مانعاً للملكة الفقهية، فسيجد هذه الضوابط تنخرم ويجدها تنتقض ويدخل عليها من الإشكالات ما يدخل.

حقيقة الأمر أن معرفة الأحكام الشرعية وتنزيلها على الوقائع يقف على مهارات كثيرة، لو قلنا إن من شروط الفتوى النظر في المآل، النظر في المآل يقف على قدرة عقلية، وهي توقع المستقبل أو ما يعرف اليوم باستشراف المستقبل، إذا لنعد استشراف المستقبل أيضا ملكة فقهية، اتسعت ودخلنا في مجال العلوم والإدارة، مثلا لدينا مسائل فقهية أنظر إلى باب الفرائض والوصايا وغيرها، إذا نعد الحساب من الملكات الفقهية.

بعد ذلك نأتي إلى زماننا الذي انفتحت فيه العلوم وانفتحت فيه الحضارة لم تعد تكفي هذه الملكات، سيقول قائل إذن لنعد من الملكات الفقهية الخبرة بمناهج البحث الاجتماعي، لنعد من الملكات الفقهية معرفة اللغة الإنجليزية، لنعد من الملكات الفقهية إتقان التقنية الحديثة التي تعين الباحث على بحثه، الحقيقة أن الضبط في هذا الأمر كما ذكرت فيه إشكال مع أنه أمر تدعو إليه الحاجة، لو كانت المسألة مجرد بحث عقلي ورياضة ذهنية كان الإنسان يعنيه أن يكتسب طلابه الملكات، يعنيه تجويد التعليم الشرعي فإن هذا يدعوه إلى أن يعرف ما هي الملكات، وأن يقسم الملكات على مراحل التعلم، إذا الحاجة داعية إلى أن نعرف الملكات الفقهية.

خلاصة ما أظن أنه مقاربة في هذا المقام يمكن أن يلخص في **ثلاث أمور**:

الامر الأول: يمكن أن نقول أن الملكات الفقهية هي المهارات الأصولية، أي أن نجعل ما اصطلح على وضعه في أصول الفقه هي الملكات الفقهية، فعلم الأصول ما وضع إلا ليكون معياراً لمعرفة الأحكام الشرعية، فكل ما تضمنته مسائل أصول الفقه من مزاولات عقلية يتوصل بها إلى معرفة الحكم فهي ملكات فقهية، هذا الأمر الأول أن نقول الملكات الفقهية هي المهارات الأصولية، أدرس الأصول دراسة نظرية وتطبيقية وستكتسب الملكات الفقهية لكن هذا لا يكفي لماذا؟ لأن أصول الفقه وضعت لاستنباط الأحكام ولم يعنى عناية تامة بتطبيقها في الوقائع، ولذلك يمكن أن نقول **الأمر الثاني**: هي الملكات أو المهارات التي بينتها كتب آداب الفتوى والقضاء، لأن الفتوى والقضاء هي تطويق وتنزيل الأحكام الشرعية على الوقائع، فنستطيع أن نقول على وجه من التقريب إن هذا الضابط للملكة الفقهية هو ضابط عرفي، أي أنه تعارف الفقهاء على ذكر هذه المهارات في التطبيق والتنزيل، تعارف الأصوليون على مسائل رأوا أن تنظم في كتب الأصول، فلنقل هذه هي الملكات الفقهية، **يبقى بعد ذلك** مهارات وقدرات عقلية قد يتوقف عليها في حالات خاصة معرفة الحكم الشرعي أو التنزيل الصحيح له على الواقع، هنا نقول إتقانها واجب على من تصدى لهذا الأمر وإن لم نعدها ملكة فقهية، لو قلنا اليوم إنه لا يكون الباحث قائما بحق البحث ما لم يكن له خبرة مثلا بوسائل البحث المعاصرة، وسائل الوصول إلى المراجع والمصادر الشرعية، فالباحث الذي لا يعرف هذه المصادر لم يستفرغ وسعه في تتبع الحكم الشرعي، هنا نستطيع أن نقول إن إتقان البحث بالحاسوبي التقني أنه أمر واجب لمن

تصدى للبحث وإن لم نسميه ملكة فقهية، لأن تسميته ملكة فقهية يجعل الملكة الفقهية لا ضابط لها ولا حد لها، لكن نقول هذه الملكات التي هي خارجة عن مهارات أصول الفقه ومهارات الفتوى لنقل إنها مما لا يتم الواجب إلا به ولنقل إنها من باب الوسائل التي تختلف باختلاف الأحوال.

بهذا يتم ما أردت ذكره في المقام الأول، وهو حقيقة الملك الفقهية، تكلمنا عن معنى الملكة في الاصطلاح، العبارات المستعملة في تراثنا تعبيرا عن الملكة، خصائص الملكة، أيضا تعريف الملكة الفقهية، هذا جواب عن السؤال الأول ما الملكة؟.

أما السؤال الثاني وهو شروط اكتسابنا للملكة الفقهية، شروط إكسابنا طلابنا الملكة الفقهية، فلا شك أن الغاية من بحث هذا الموضوع ومن طرقه هو نيل الملكة، والعلوم كما يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله ما دونت إلا لإكساب ملكاتها، العلوم ما دونت لتحفظ أو لتروى بل لكي تكون ملكات قارة في نفوس متعلميها، إذن غاية الكلام هو الوصول إلى مقصود الملكة، هنا نجد العلماء في كتب آداب طلب العلم يذكرون آداب الطلب وصفات الطالب وآداب المعلم ويذكرون تفصيلاً في هذا الأمر، الذي أحاوله في هذا المقام هو أن نستقرئ وسائل اكتساب الملكة مما ذكره علماؤنا في آداب الطلب، فلكي لا تكون المسألة منتشرة متشعبة بعبارات متعددة، دعونا نستقرئها ثم نردها إلى أصولها، إذا تتبعنا ما قيل في آداب الطلب وما لا بد منه لبلوغ درجة الإجادة والإتقان في العلم نجد أنه من الممكن أن نضع شروط لاكتساب الملكة الفقهية والحقيقة أنها لا تختص بملكة الفقه بل هي للملكات العلمية، لكن ما نرومه الآن هو ملكة الفقه، نستطيع ان نتلمس وأن نعيد هذه الصفات والوسائل والآداب إلى أربعة شروط هي **شروط اكتساب الملكة:**

أحدها: الاستعداد الفطري.

الثاني: العناية بالقواعد والكليات.

الثالث: الممارسة المباشرة.

الرابع: التكرار.

أرجو أنك مهما وجدت مما ذكر في آداب طلب العلم وما ينبغي أن يكون عليه تجدها عائدة إلى واحدة من هذه الأصول، وهذه الأمور الأربع يصح أن نسميها شروطاً لانطباق حقيقة الشرط عليها، الشرط ما يلزم من عدمه العدم، فإذا فقد واحد من هذه الأربعة فلا ملكة، فلو فقد الاستعداد الفطري فلن يبلغ المرء الملكة، وإن أهملت القواعد والكليات فلا ملكة وإن تعلم العلم بالنظر والسماع بلا ممارسة فلا ملكة، وإن لم يتكرر التعلم وتتوالى التجارب فلا ملكة، إذا يصح أن نسميها شروطا إذا فقدت فقدت الملكة، لكن إن وجدت فالحقيقة أن وجود هذه الأربعة لا تتم به الملكة، بل لا بد من سبب، وتعلمون أيها الإخوة أن الأحكام عمادها الأسباب، وما الشروط إلا مكملات لسببية السبب، فلذلك قبل أن نشرع في هذه الشروط لابد قبل ذلك أن نتذكر أن العلم هبة من الله تعالى لا ينال إلا بفضله وأن البشر كما قال الله عز وجل: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾البقرة ٢٥٥، وأن الفقه في الدين اصطفاء من الله سبحانه قال الله تعالى لكليمه موسى عليه السلام: ﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾الأعراف ١٤٤، وإذا كانت الرسالة اصطفاء من الله تعالى فإن إرثها علما وعملا ودعوة إرث من هذا الاصطفاء، فالاجتهاد والحرص غير كاف في بلوغ ملكة العلم ما لم يصحبه توفيق من الله عز وجل ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾فاطر ٢، لكن كون الفقه هبة وفضلا من الله عز وجل لا يمنع أن يكون لنيله أسباب من جهة العبد، فكثيراً ما أوضح القرآن أن الإيمان والعمل الصالح والتقوى وصلاح النية والإحسان مفاتيح للعلم من ذلك قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾الأنفال ٢٩، علما تفرقون به بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين}يوسف ٢٢، أيضا بين القرآن العظيم أن العبد قد تصدر عنه موانع تحول بينه وبين العلم، الله تعالى قال في آيات كثيرة في القرآن ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾، الفقه في الدين أيها الإخوة ليس عملاً ذهنياً محضاً كالعمليات الحسابية والهندسية التي يكون الأقرب فيها إلى الإصابة من كان أبرع وأحد ذكاء، ولكنها منحة من الله سبحانه وتعالى يمنحها الصادقين والمخلصين والمنيبين إليه، الذي نستفيد أيها الأخوة من هذه الحقيقة القرآنية أمور متعددة، لكن أريد أن أشير إلى أمر منها وهو أن يجتهد المعلم في أن يكون تعليمه ربانيا وأعني بالتعليم الرباني التعليم الذي يتأسى بمنهج القرآن، انظر إلى آيات الأحكام في القرآن أتراها أحكاماً مجردة كالقوانين كمواد للأنظمة؟ لا، تجدها آيات ممتزجة

بصفات الله سبحانه وتعالى وبتذكير العباد بثوابه وتخويفهم من عقابه قال تعالى: ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾البقرة٢٢٣، ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾البقرة٢٣٥، ﴿وبشر المحسنين﴾الحج ٣٧، ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾البقرة٢٣٧، القرآن يبني النفس، انظر إلى قول الله سبحانه وتعالى وهذه آية ينبغي أن تكون نصب عيني معلم الفقه: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته و يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾آل عمران١٦٤، فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن فقط يعلم الحكمة ويدرس ويقول هذا واجب وهذا حرام، بل كان يزكي، بماذا يزكي؟ بتعليق القلوب بالله سبحانه وتعالى، بتعليق الهمم بالآخرة، بالتعريف بصفات ربه سبحانه وبحمده بالوعد والوعيد، إذن تعليمنا للفقه يجب أن لا يكون جافا، ألا يكون أجنبيا، ألا نفصل بين العلم والحكمة والتزكية، لو ذكرنا مثالا حينما أدرس باب الأمر في أصول الفقه، مسائل، لكن ماذا لو كان مع دراسة باب الأمر يقرأ الطالب ولو قراءة كما يقال إثرائية فصلاً أو فصولاً في مسألة تعظيم أمر الله سبحانه وتعالى، يقرأ شيئا في سيرة الصالحين والسلف في تعظيم أمر الله ووقوفهم عنده وكان عمر وقافا عند كتاب الله، ما أحسن حينما ندرس مثلا في أصول الفقه والسنة أن يقرأ الطالب في محبة السلف للرسول، كيف كانوا إذا ذكروا اسمه صلى الله عليه وسلم كيف كانوا يتحرزون في التحديث عنه، كيف كانوا يجلون هذا الرسول عليه الصلاة والسلام، هنا سيخرج طالب رباني، طالب مقبل على الله سبحانه وتعالى، وهذا أحرى بأن يكون أمينا على هذا العلم، فهذا العلم هو رحمة الله للعالمين، هذه رسالة، ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾آل عمران ١١٠، فمتى قارن الفقه التزكية خرج رجال يحيون هذا الدين وينقلون رحمة الله سبحانه وتعالى لعباده، هذا الأمر ليس بأجنبي عن الفقه وليس منفصلا عنه، والكلام عن الملكة هو كلام عن العقل، والعقل قوة من قوى الإنسان، فإذا عظم الكلام في العقل وكان ذلك على النقص أو على الغض من قدر الإيمان والإخبات والروح أصبح علم الفقه كأننا ندرس رياضيات أو ندرس المنطق أو غير ذلك، وبذلك لا نصل إلى ما يريد الله سبحانه وتعالى أن نصل إليه.

إذا يمكن أن نقول أن شروط اكتساب الملكة الفقهية أربعة شروط أحدها: الاستعداد الفطري، والاستعداد الفطري هو أن تكون طبيعة الإنسان مؤهلة للتعلم، مؤهلة للتميز في العلم، الاستعداد الفطري إذا تأملت فيه تجد أنه يعود إلى ثلاثة أمور، أحدها الذكاء، ثانيها الطبيعة المعتدلة، ثالثها الرغبة

الدافعة، أول شرط من شروط الملكة الفقهية أن تكون فطرة الإنسان وطبيعته مؤهلة للعلم، فالله عز وجل الله سبحانه وبحمده حكيم، وقد قسم بين الناس معايشهم وجعل أناسا للسيف وأناسا للكتاب وأناسا للإحسان وأناسا لغير ذلك، فمن أراد أن يكون من أهل العلم فلا بد أن يكون مستعدا بفطرته، والاستعداد الفطري يتضمن هذه الثلاثة الذكاء والطبيعة المعتدلة والرغبة الدافعة، أما الذكاء فلا يخفى عليكم أننا لا نتكلم عن العلم الواجب، العلم الذي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يعلمه، لا، وإنما نتكلم عن فرض الكفاية، نتكلم عن الفقه، نتكلم عن الاستنباط، وهذه أمور لا يقتدر عليها إلا ذو ذهن ذكي فطن، هذا أمر لا خفاء فيه، لكن الذي ينبغي الحذر منه هو الشطط في تعظيم شأن الذكاء، المبالغة والغلو في أن نعظم شأن الذكاء بأن نعتقد أن الفقه لا يناله إلا أذكياء العالم، والحق أن الفقه رتب فمن كان من طلاب العلم أذكى كان أحرى ببلوغ مراتب الفقه العالية، ولكن ذا الذكاء المتوسط غير معزول عن الفقه ولا خارج عن دائرة الصلاحية له، وقد ضرب الله تعالى للقلوب واتساعها للعلم مثلا بتفاوت الأودية في احتمالها لما ينزل عليها من الماء ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾الرعد ١٧، فلذلك ينبغي على طالب العلم أن يتريث في الحكم على عقله وذكائه، لأن من الناس من يقول يا أخي أنا ما أقدر أنا ما أفهم، هذا عجلة، أيضا على المعلم أن يحذر من الاستعجال في الحكم على الطالب، فكم من طالب ظن فيه معلمه البلادة، وربما تعجل فقال له كلمة يزجره فيها عن العلم ثم أخلف ظنه فعاد هذا الطالب أنبغ من معلمه، وهذا كثير في المسلمين وفي غيرهم، ولذلك نبه العلماء على أن الذكاء شرط ولكن كل طالب له درجة من الذكاء تبلغه درجة في الفقه، وأيضا فالحكم على الإنسان بدرجة من درجات الذكاء هذا أمر ينبغي التورع فيه، فإنك قد تجد الطالب وهو لم يظهر ما فيه من الملكة ومن الذكاء فإذا ما راض نفسه بالعلم وعاود التعلم وداوم عليه بلغ مبلغا لم يكن معلوما فيه من قبل.

أيضا مما يشار إليه في أمر الذكاء هو أن الذكاء ليس شيئا واحداً والباحثون في علم النفس تبين لهم أن الناس قد قسم الله بينهم أنواعا من الذكاء، فأشهر أنواع الذكاء وهو صلب أنواع الذكاء هو ما يسمى بالذكاء المنطقي والذكاء الأصلي أو أشهر أنواع الذكاء، وهو الذي يتمكن به الإنسان النواميس الكلية التي أجرى الله عليها الكون، يعرف ارتباط الأسباب بالنتائج، يعرف أن هذا الأمر يؤدي إلى هذا الأمر،

يعرف أن هذا يدل على هذا، هذا ذكاء منطقي يسمونه ذكاء رياضي لكن ليس هو الذكاء كله، فهناك الذكاء اللغوي وهناك الذكاء الاجتماعي والذكاء الذاتي، ماذا نستفيد من فكرة تعدد الذكاء تعدد أنواع الذكاء نستفيد من هذا أن أنه لا يكفي أن نقول هذا ذكي وهذا ليس بذكي، بل ينبغي أن نقول هذا الإنسان أبرز أنواع الذكاء فيه الذكاء اللغوي، هو منطيق وفصيح وذلق اللسان ليس معناه أنه ذكي في كل مجال، نعلم أن هذا الرجل ذكاءه لغوي، فنعين هذا الطالب على أن يبلغ أعلى ما يستطيع الوصول إليه من الملكات الفقهية المناسبة لذكائه، هذا الرجل الذكي ذكاءً لغويا لو وضع في غير موضعه لكان كالشجرة التي تغرس في غير منبتها، إذن المسألة ليست أن نقول هذا ذكي وهذا غير ذكي، بل الأمر أعمق من ذلك، وهو أن نقول هذا الطالب عنده ذكاء اجتماعي إذن ينبغي أن يؤهل وأن يعان على التدرب على الإفتاء، هذا الاجتماعي الناس يرتاحون له، هو يفهم الناس أكثر من غيره، وذلك الباحث ذكائه منطقي لا تشق عليه بمقاسات الناس، وهذا الاجتماعي إن وضعته في البحث أتاك ببحث ليس بتام، لكن إن جعلته مثلا يقابل الناس فإنه بإذن الله سيصلح وسيسد المسد، فأهِّل هذا لما يصلح له وأهّل هذا لما يصلح له، العلماء رحمهم الله لهم كلام كثير في هذه الأبواب.

إذن من شروط الملكة الفقهية، الاستعداد الفطري والاستعداد الفطري يتضمن الذكاء وهذا ما تحدثنا فيه الآن، ويتضمن الطبيعة المعتدلة، الطبيعة التي يسميها أصحاب علم النفس الشخصية، سمات الشخصية، أنماط الشخصية، وأعتذر ربما لا تكون عباراتي دقيقة في هذا المجال، لكن طبيعة الإنسان لها أثر في مهارته الفقهية، فأحسن الناس ملكة أعدلهم طبيعة، وأعني بالاعتدال هو قرب الطبيعة وقرب النفسية وقرب الشخصية من الوسط، كلما كان الإنسان أقرب إلى التوسط أبعد عن الإفراط والتفريط فإن دين الله عز وجل قائم على العدل، فأقدر الناس على فقه مراد الله سبحانه وتعالى هو أقربهم في نفسه وفي عقله وفي نفسيته وفي نشأته من الاعتدال، فنبينا صلى الله عليه وسلم يقول للأشج: (إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة)، فالحلم والأناة من أحسن الصفات التي يهبها الله سبحانه وتعالى للفقيه، فماذا ماذا نتخيل من متفقه أو فقيه ضعيف الحلم، أو فقيه قليل الأناة، سنجد الفتاوى العاجلة والآراء الفطيرة، مثلا في علم النفس يذكرون أنماطا من الشخصيات أو سمات الشخصيات مثلا يقولون هناك الشخصية المرتابة أو المفرطة في الغلظة، هكذا هو، ماذا نتوقع أن يكون أثر ذلك على نظره

الفقهي، مثلا من كان هكذا فإنك تجده ميالا إلى تغليب جانب الاحتياط وجانب المنع في المسائل الاجتهادية، تجده ميالا إلى سد الذرائع تجده ميالا إلى درء المفاسد وتقديمه على جلب المصالح، إذا أراد أن يحكم على جماعة من الناس فيهم سنة وبدعة نظر إلى ما فيهم من البدعة، تجده صلب في قوله لا يكاد يغير قوله، تجده غليظا تجده يسبق إلى قلبه سوء الظن، ولو قلنا الشخصية المقابلة له الشخصية التي يسمونها الساذجة، ستجد صاحب هذه الشخصية ربما لحسن ظنه بالناس يغتر بخداع المستفتين، تجده مهملا لقاعدة سد الذرائع وعدم توقعه للمآلات السيئة، وهكذا مثلا من كان متصفا كما يقال بالتفكير الحدّي، سيكون لهذا أثر على شخصيته، المقصود أن بناء الشخصية وتهذيب النفس وحسن تربية الأولاد والتعليم الراشد الذي يهذب النفس والعقل أنه له أثر على الملكة الفقهية، يبقى بعد ذلك سؤال وهو لا يكمل منا أحد، الكمال البشري في أنبياء الله، كلنا فينا ميل عن سواء السبيل، فينا إنحراف إلى إفراط أو تفريط، إلى تشدد أو إلى تراخي، لكن الذي نستفيده أو الذي نستصحبه من هذا الأمر هو أن الله عز وجل قال: ﴿قد أفلح من زكاها﴿٩﴾وقد خاب من دساها﴿١٠﴾﴾الشمس، نفسي ونفسك كالشجرة هذه الشجرة إن تركت تشعثت و مالت وكثر شوكها وإن زكيت وهذبت طالت وأظلت وأثمرت، فالله سبحانه وتعالى بحكمته جعل فينا صفات حسنة وصفات غير حسنة، لكنه جعل فينا قدراً وأقول قدراً من قابلية الإصلاح، فنحن مكلفون بهذا القدر الممكن، بعبارة أخرى صفاتنا الشخصية لن تزول، لا تظن أنك بتهذيب بنفسك ستزول أخلاقك، لا لن تزول، شجرة التفاح مهما عملت بها ستظل شجرة تفاح وشجرة السدر مهما حاولت لن تكون نخلة وأنا وأنت كذلك، لكننا سنبلغ بتوفيق الله ثم بمجاهدة أنفسنا أفضل ما يمكن أن تكون عليه شجرة السدر، سنظل شجر سدر ولكن التهذيب يرتقي بك إلى أعلى درجات الإمكان، وهذه الدرجة وهذا المجال هو ما سيسألك الله عنه، فلذلك ينبغي للإنسان أن يتبصر بنفسه، والعلماء في علم التهذيب والسلوك يذكرون يقولون كيف يتعرف الإنسان على أخلاقه الذميمة، هذا أمر مهم، فهناك طرق يتعرف فيها الإنسان على جوانب القوة والجودة والحسن في شخصيته وجوانب القصور والضعف، فعليه أن يعمد إلى هذه الصفات وأن يأخذ نفسه بالتدريب والمران على تزكيتها وتهذيبها، ثم عليه بعد ذلك أن يؤيد نظره بالاستشارة، يعني إذا أتتني مسألة وأنا أعلم من نفسي أنني إنسان يميل إلى التسهيل، فعلي أن أقرن برأيي رأيا مقابلاً له

فيكون بين رأيي ورأيه شيء من التوسط، فالمقصود أن هناك قدراً قابلاً للتزكية وهناك بعد ذلك أمور يفعلها الإنسان ليتجنب شرور نفسه، رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر السيد الجليل رضي الله عنه قال: (إنك ضعيف لا تتأمرن على اثنين ولا تتولين مال يتيم)، كذلك أنت أيها المتفقه، أنت فاضل وقد أعطاك الله خيرا لكن ليس كل مجال يصلح لك، فهذه أمور تكمل شيئا مما فينا من النقص، وبعد ذلك سنظل يبقى فينا بقايا نسأل الله سبحانه وتعالى فنقول ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

نحن الآن نتكلم في شروط الملكة الفقهية، نتكلم في الشرط الأول، وهو الاستعداد الفطري ورأينا أن الاستعداد الفطري يتضمن الذكاء والطبيعة أو الشخصية المعتدلة المتوازنة.

الأمر الثالث والأخير في مجال الاستعداد الفطري هو الرغبة الداخلية، الرغبة، الشوق، النهمة اللي يسمونها اليوم الشغف، فلا ينال العلم إلا محب للعلم، المكره على العلم لن يبلغ شيء يذكر في العلم، فلا بد من أن يكون الإنسان محببا إليه العلم، فهذا الأمر تتابع العلماء على التوكيد عليه وذكر أنه لا بد منه، لكن هنا قد يأتينا سؤال فيقول القائل ماذا أفعل إذا وجدت همتي قاعدة عن العلم، إذا لم أجد في نفسي ذلك الشوق الذي يحملني على الصبر على التعلم وعلى الجد، خلاص أنا ما أصلح للعلم؟ نعم سنقول ربما نقول إنك لا تصلح، لكن ليس فوراً نحكم عليك بهذا الحكم، بل لا بد من أن يعرض الإنسان نفسه للمواقف التي تبين له جمال العلم، العلماء لماذا ألفوا في فضل العلم، ألفوا في فضل العلم لكي نحب العلم، لكي ندرك جمال العلم، فإذا قال الإنسان أنا والله ما عندي ذاك الرغبة ما أحس أني أنبسط في العلم، نقول أصلا هل أبصرت بعينك جمال العلم، هل ذقت حلاوة العلم، لا لوم عليك ألا تحب العلم فإنه لا يحب أحد شيئا وهو لم يره، نقول تعرف إلى العلم اقرأ في فضل العلم اقرأ سيرة العلماء، انظر ثواب من كان من أنصار دين الله سبحانه وتعالى في الآخرة الله تعالى يقول: ﴿كونوا أنصار الله﴾الصف ١٤، كيف تكون من أنصار الله وأنت لا علم عندك، إذن إذا عرفت فضائل العلم ورأيت جماله ولذته وحلاوته بعد ذلك أخبرنا ماذا تقول في حب العلم، إذا لا نستعجل في أن نحكم على أنفسنا أو على غيرنا بأنه لا رغبة في نفوسنا، بهذا يا أيها الكرام نفرغ من الشرط الأول من شروط نيل الملكة الفقهية، وهي الاستعداد الفقهي.

ننتقل ولن نطيل الآن إن شاء الله إلى **الشرط الثاني**، وهو **العناية بالقواعد والكليات**، أعني بالقواعد والكليات الأحكام الكلية الجامعة لفروع الفقه، ويمكن أن نصنفها أربعة أصناف هي: نصوص الوحي، وأصول الفقه، والقواعد الفقهية، ومقاصد الشريعة، فإذا كان تعلمنا وتعليمنا للفقه مبنياً ومنطلقاً وعائداً إلى أصوله وجوامعه وكلياته وأمهاته فإننا على سبيل المكلة، ولا أريد أن أطيل عليكم بذكر أقوال الفقهاء والعلماء في شأن القواعد وفائدة المعرفة بالقواعد وثمراتها لأنها أمر مشتهر ومعلوم بحمد الله، لكن يمكن أن يشار إلى أن العناية بالقواعد العناية بنصوص الوحي بأصول الفقه بالقواعد الفقهية بمقاصد الشريعة لا يكون بدراسة الأصول دراسة مباشرة فحسب، ربما يعتقد إنسان أن العناية بالأصول هو أن أدرس أصول الفقه، نعم دراستك أصول الفقه من خير ما يكسبك المعرفة بقواعد العلم وكلياته لكن للقواعد والأصول طريق آخر وهو الوصول من الفروع إلى الأصول، وذلك بأن تكون دراستك للفروع مؤدية لك إلى الأصول، اجعل الأصول هي قبلتك وهي خيتك التي تدور عليها وتأوي إليها، لكن لا تظن أنك فقط تدرس القواعد الفقهية تأخذ لك كتاب في القواعد الفقهية وتقرأ وتفهم بس، لا بل انفذ إلى الأصول من الفروع، فإذا درست الفقه فانظر فيه نظر من يربط بين الفروع ومن يتوسم ومن يحيط ببصيرته بين أشتات المسائل، وأنت تقرأ في البيع استحضر في ذهنك نظائر ما تقرأ، ستجد أن هذه المسألة مرت بك في باب آخر وثالث ورابع، هنا قف إن كنت تريد الملكة، أما من لا يريد الملكة فله طريق آخر، إن كنت تريد الملكة فقف واجمع النظائر، فإذا جمعتها انظر في حكمها فإن وجدت حكمها واحداً فقد أصبت قاعدة من قواعد الفقه، وهنا تكون أصبتها بنظرك ولله الحمد وليس بنقلك أنك قرأت كتاب في قواعد الفقه، لا، هي قواعد ووقفت عليها، وإن وجدت هذه الفروع مختلفة الأحكام، مسائل بعضها مماثل لبعض لكن أحكامها مختلفة، هنا تقف وقفة أخرى فتبحث وتلتمس الضابط والجامع والفارق، هنا إذا درست الفروع هذه الدراسة فدراستك تفضي بك إلى الأصول، وهنا تكون معرفتك بالأصول خيراً من معرفة من لا يعرف الأصول والقواعد إلا من كتب القواعد، مثلاً إذا كنت اقرأ في التفسير قراءة مستحضرة، فإني سأستحضر ما أعرفه في أصول الفقه و أجريه على ما أقرأ في التفسير، أقرأ أحكام القرآن أربط بين الأصول والتطبيقات، فهنا تكون الفروع تؤصل عندي الأصول، وهنا فعلا تلتأم الأحكام، ومن خير الشواهد القريبة منا طريقة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، انظر كيف يفتي وكيف يقرر الفروع، تجد أنه يستقرأ ويذكر النظائر بل أحيانا يخرج عن الفقه إلى

العقيدة يريد أن يشعرك بأنه ﴿تمت كلمة ربك صدقا وعدلا﴾ الأنعام ١١٥، كأنك ترى كلمة الله سبحانه وتعالى متسقة، بل أحيانا يعدو ذلك إلى مجال الخلق ﴿ألا له الخلق والأمر﴾الأعراف ٥٤، ففعلا يطلعك على أن الحكم الشرعي متسق مع المخلوقات ونظام الكون، هنا تصبح أنت بنفسك تذوق وتبصر بعينك القواعد، فالقراءة النظرية في قواعد الفقه وفي أصوله لا تعطي إنسانا ذا ملكة وذا معرفة بالأصول والقواعد، بل هي تعطيه شطرا من الطريق وتحمله مسافة في الطريق، ولكن لا بد له من أن يسير هو باقي الطريق بهذه الطريقة.

إذا هذا إشارة الى الشرط الثاني من شروط اكتساب الملكة الفقهية، وهو العناية بالأصول والكليات، إذن عشان نتذكر الشرط الأول، الاستعداد الفطري وتحته ثلاثة أركان أو أجزاء، الذكاء، الطبيعة المعتدلة، الرغبة، ثم الشرط الثاني العناية بالقواعد والأصول والكليات.

ننتقل إلى **الشرط الثالث**، وهو من أخص شروط الملكة الفقهية، هو: **الممارسة المباشرة**، والمراد بهذا الشرط الشريف أن العلم لا ينال بالسماع، العلم لا ينال بأن يخبرك غيرك فيقول لك إن حكم هذه المسألة كذا وكذا أو إن القول الراجح كذا وكذا، الملكة إنما تنالها بعون الله سبحانه وتعالى ثم بأن ترى أنت بعينك العلم، تدركه بتفكيرك الشخصي بتتبعك بنظرك في الأدلة، هنا تبلغ الممارسة المباشرة كأنك لمست ووضعت يدك على النتائج، وهذا الأمر كما لا يخفى عليكم لا يختص بالملكة الفقهية، بل هو أمر مشترك بين جميع الملكات والمهارات، فالناس هل يثقون بطبيب خبرته في الطب أنه درس كتب الطب؟، هل يثق الناس في مهندس خبرته في الهندسة أنه درسها في الكتب؟، هل يثق الناس مثلا بمزارع أو بصانع كل خبرته القراءة، لا شك أن هذا غير موثوق به، وكذلك أيها الكرام الفقه، كلام العلماء رحمهم الله كثير في أن الفقه لا يكون إلا بالممارسة بالرياضة بالمران.

ما ذكره علماؤنا أيضا لا شك أن علم النفس الحديث يصدقه، وكلكم يعلم أن الدراسات النفسية كثيرة أن التعلم النشط التعلم الفعال الذي تتواطأ فيه الحواس الذي يخوض فيه المتعلم التجربة بنفسه هذا هو التعلم.

إذا أردنا أن نذكر صور الممارسة المباشرة في سيرة الفقهاء، كيف كان الفقهاء قبل ذلك كيف كان النبي عليه الصلاة والسلام، كيف كانت الممارسة المباشرة تظهر في سيرتهم، نجد مسالك كثيرة، لكن سأضطر إلى أن أذكر العناوين منها، أحدها العمل بالعلم، إذا عملت بالعلم فعملك سيجعلك ليس فقط تكون أديت الواجب الشرعي، وإنما حتى يعود عليك في فقهك، ففرق بين عالم يعمل بعلمه وعالم لا يعمل بعلمه.

من طرق وأمثلة ومسالك الممارسة المباشرة في سير العلماء والفقهاء أخذ العلم عن العلماء الربانيين، أن آخذ علمي عن عالم، لا أخذه من الكتب وحدها، لأن أخذ العلم عن العالم فيه فضائل كثيرة، منها أنه إذا قلنا عالم رباني عالم يحسن التربية يحسن تدريبنا على الملكة فإنه سيدربنا على الفهم يدربنا كيف نفهم يدربنا كيف نتناول العلم، وهذه هي الممارسة المباشرة، فأخذ العلم عن العلماء الربانيين من مسالك الممارسة المباشرة.

من مسالك الممارسة المباشرة في سيرة علمائنا إعمال الفكر في التفقه، نرى جماعة من طلاب الفقه إذا عنّ وسنح في خاطرهم إشكال فزعوا إلى السؤال، أول ما يطرأ على باله سؤال مباشرة يكون على اللسان، هنا يكون المعلم مخطئا إذا جاد وسمح بأن يكون كأنه استعلامات سؤال وجواب، ماذا سيخرج هذا المتعلم؟ سيخرج كسولا، سيخرج فاتر القريحة منطفئ الذكاء، العلماء رحمهم الله الربانيون يعلمون الطالب يقولون أولا إذا أشكل عليك أمر مثلاً تقرأ كتاب المسألة الأولى واضحة الثانية واضحة الثالثة واضحة الرابعة مشكلة فيقولون أول شيء احذر أن تتجاوز المشكلة، لا تعود نفسك التغافل والتعاشي عن المسائل المشكلة، فإن الطالب إذا كان من دأبه التغافل وتناسي المسائل المشكلة ويتجاوزها أصبح ميت الذهن، هذا لا يصلح بحال لأن يكون من حملة العلم والفقه، فأول أمر أن تصابر المسائل المشكلة، تصمد لها فلا تتخطاها حتى يحكم الله بينك وبينها، وذلك بأن تستعين أولا بالله، تقول لا حول ولا قوة إلا بالله سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، ثم بعد ذلك تستعمل ما منحك الله من الذكاء ومن العقل وتفكر وتقلب تذْكر احتمالات تذْكر أجوبة، هذا أول أمر، فكرت ووصلت إلى نتيجة أو فكرت وما وصلت إلى نتيجة، المرحلة الثانية هي أن تراجع الكتب، لا تسأل الشيخ، فإن سألت الشيخ أصبحت عامياً، بعد أن تجتهد في نفسك وتشحذ ذهنك فطالع الكتب فالعادة أنه ما

يخفى في كتاب يتبين في كتاب آخر، ومطالعتك الكتب ستزيد طمأنينتك إلى فهمك ستجد أن ما أشكل عليك ربما تجد مشكل عند العلماء ربما تجد أن هذه العبارة أصلا في نفسها مشكلة، فهنا ستحمد الله وتجد أنك لم تؤت من غباء فيك وإنما من إشكال حقيقي، وستتدرب على المطالعة ويقوى تفكيرك، إن أغنتك الكتب ووجدت الشفاء فيها فاحمد الله، ﴿فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾البقرة٢٣٩، وهذا يا إخوان من آداب العلم إذا علمك الله فاشكر الله، ﴿واذكروه كما هداكم﴾البقرة ١٩٨، القرآن يعلمنا أن نتبع التعلم بالشكر، فإذا انحلت لك مشكلة فقل اللهم لك الحمد، إن لم تجد في الكتب جوابا هنا تسأل الشيخ، فمن كان بهذه الطريقة فإنه بإذن الله على سبيل التعلم.

أيضا من وسائل الممارسة المباشرة: المباحثة بين القرناء، المباحثة بين اثنين أو جماعة، من وسائل الممارسة المباشرة النظر في أقوال الفقهاء وكتبهم للتفقه لا للتقليد، أن تقرأ في كتب العلم تقرأ في كتب الفقه في كتب الخلاف في كتب التفسير ليس هدفك أن تعرف سؤال وجواب، بل أن تعرف كيف كان العلماء يفكرون، كيف كانوا يجمعون كيف كانوا يرجحون كيف كانوا يقيسون كيف كانوا يجتهدون في النوازل، إذن هذا من أنواع الممارسة المباشرة.

من الكلمات التي تواطأ عليها جماعة من العلماء قولهم من لم يعرف الاختلاف لم يشم أنفه الفقه، فالذي يعرف طريقة واحدة ومذهب واحد وإمام واحد ومرجع واحد والقول الراجح عند واحد هذا لن يعرف الفقه، فمن من أسباب الفقه تنوع مصادر العلم، ولا شك أن بهذه الطريقة يتسع الإنسان ويتعلم من كل عالم ومن كل كتاب ومن كل مذهب أحسن ما فيه ويعرف ما في طريقة شيخه وطريقة مذهبه من قصور لا يخلو منه أحد، وغير ذلك من المنافع، مما نستفيد من تعدد مصادر التعلم ما قاله أبو الدرداء لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها كثيرة، يعني أن سعة الأفق تجعل عند الإنسان شيء من المرونة وشيء من العذر وشيء من الاتساع أما الذي لا يعرف إلا فتوى واحدة وشيخا واحداً تجده سريع التبديع والتخطئة وضيق العطن والنطاق، فهذه أمور وأخلاق وملكات لا غنى للمتفقه عنها، لكن لا يخفى عليكم أن تنوع مصادر العلم ينبغي ألا يكون في المرحلة الأولى، لو أن الطالب في أول تعلمه وأول دخوله للعلم أعطي الخلاف وقيل له انظر في المسألة في المذهب الفلاني والمذهب الفلاني واقرأ في الطريقة الفلانية هنا لن يستطيع أن يبني نفسه، ولذلك ما يكاد يكون متفقا عليه عند العلماء

أن الطالب في أول أمره يلزم طريقة واحدة وكتاباً واحداً ومعلماً واحداً حتى يشتد عوده ويكون لديه معرفة كافية، ثم بعد ذلك يرخى له العنان ويطلق له الحبل على غاربه.

أيضا من أنواع الممارسة المباشرة: التعليم، فالذي يعلم أرسخ في العلم من الذي لا يعلم، والتعليم فيه أسباب متعددة لازدياد الملكة، وتعلمون أن الله سبحانه وتعالى يزيد المحسنين ﴿سنزيد المحسنين﴾الأعراف١٦١، وأيضا الإنسان مجرد تكلمه بالعلم يزيده رسوخاً واتضاحاً وتحرراً واستقراراً في نفسه، وإذا وهب المعلم طلبة نجباء وطلبة أذكياء أعانوه على تمحيص علمه بمناقشتهم وبمساءلتهم فأعانوه على أن يحكم علمه.

أيضا من أنواع الممارسة المباشرة: عند علمائنا البحث والتأليف، فالتأليف كما يقول العلماء يحمل الإنسان على التحرير، أحيانا التدريس تضعف الناس فيه ويكون الإنسان أمام طلاب هم دونه في العلم، فقد يتجوز، قد يمر بعض المشكلات، لكنه إذا ألف فإن التأليف يضطرك إلى التحرير ما لا يكون في غيره.

أيضا من وسائل الممارسة المباشرة: المناظرة،و أختم بها هذا الشرط لكي نصل إلى الشرط الأخير والرابع التجربة وممارسة الحياة، من الأقوال المأثورة وذكرها البخاري في صحيحه قول معاوية رضي الله عنه لا حكيم إلا ذو تجربة، فممارسة الحياة والتقلب في أحوالها تكسب الفقيه خبرة وحكمة وتعينه على تنزيل الأحكام على الوقائع، فبالتجربة يدرك حاجات الناس وضروراتهم، يفهم مقاصدهم يتفطن لمكرهم يعرف البدائل والمخارج المباحة، بل يكون أيضا أقدر على مخاطبتهم وإقناعهم، ومن الآثار في هذا أنه قيل لعمر رضي الله عنه فلان ما شاء الله رجل صالح لا يعرف الشر .قال عمر :ذلك أجدر أن يقع فيهو .الإمام أحمد رحمه الله قال لا ينبغي للرجل أن ينصب نفسه للفتي احتى يكون فيه خمس خصال وعد منها :معرفة الناس . والحنفية يقدمون قول أبي يوسف على قول أبي حنيفة في المسائل المتصلة بالقضاء، وابن عابدين أو غيره ذكر يقول رجع أبو حنيفة عن قوله بأن الصدقة أفضل من حج التطوع لما حج وعرف مشقته، إذن ممارسة التجربة وممارسة الحياة هذا أمر لا بد منه لمن أراد ملكة الفقه.

في علم النفس التربوي عندهم نظرية تعد نظرية متقدمة وحديثة وهي النظرية البنائية، يرون أن يبنى التعليم على النظرية البنائية، النظرية البنائية تقول إن الإنسان يبني معرفته بنفسه ليس بما يسمع، المتعلم

هو الذي يبني معرفته، بماذا يكون بناء المعرفة؟ بالتجربة المباشرة، ولذلك يقولون ينبغي على المعلمين أن لا يعطوا الطلاب مشكلات مبسطة وسهلة، انت تعطي الطالب سؤال ما حكم كذا وبس ترى هذا تعليم رخو، يقول لا يعطوا مشكلات مبسطة وسهلة أو تمارين مهارية أساسية، بل بدلا من ذلك يجب أن يتعاملوا مع حالات مركبة ومشكلات غير واضحة وغير منظمة، فالعالم خارج المدرسة نادراً ما يكون فيه مشكلات مبسطة أو أمور تسير خطوة خطوة بشكل منتظم، إذن يجب أن تكون دراستنا تتضمن مشكلات واقعية من حقيقة الحياة المعيشة وأن تكون مشابهة للمواقف التي سيواجهها المتعلمون حينما يخرجون ويلاقون مشكلات الحياة والعالم الحقيقي، لهذا نأتي إلى آخر ما أريد ذكره في الشرط الثالث من شروط الملك الفقهية، وهي الممارسة المباشرة دعونا نسترجع أول هذه الشروط هو الاستعداد الفطري ثانيها العناية بالقواعد والكليات ثالثها الممارسة المباشرة.

نختم حفظكم الله **بالشرط الرابع، وهو التكرار**، الملكة لا يمكن أن تنال بلا تكرار، المعلومة الواحدة لا ترسخ القراءة الواحدة لا تثبت التجربة الواحدة تندثر، ولذلك اتفق العلماء ووافقهم علماء النفس اليوم على أن المهارات لا ترسخ إلا بالتكرار، إذا نظرنا الى طريقة تعلم الإنسان، نجد طالب العلم يبتدئ التعلم وهو خال الذهن فإذا تعلم تكونت لديه تصورات صحيحة لكنها تصورات سريعة الاندثار وغير موثقة بالبراهين ولا مصدقة بالممارسة والتجربة، فإذا ما استمر في الطلب وكرر التعلم كرة بعد أخرى، حصل له من الرسوخ في كل مرة ما لم يكن من قبل، فحصل له مزيد من اتضاح التصور وزوال الإشكالات وعرف من الأدلة ما يزيده طمأنينة وثقة وتبين له من سقوط الشبة المعارضة ما يقوي ثباته، وشهد تشابه العلم وتصديق بعضه بعضاً وزاول تطبيق العلم على الواقعات وباشر ما في التطبيق من مواجهة العوارض وانتفع من أخطائه في الممارسة كما ينتفع من إصابته وبكل ذلك يزداد رسوخا، ولا يخفى أن التكرار لا يكون إلا بتفرغ، لا تستطيع أن تكرر العلم وأن تداوم عليه إلا بأن تعطي العلم وقتك وأن تقبل عليه بكلك.

التكرار في سيرة العلماء لها مسالك وصور، في تاريخنا وفي تراثنا الفقهي نجد العلماء يتبعون مبدأ التكرار بمسالك عدد منها الحفظ، الحفظ من أشكال التكرار، تريد ترسخ في العلم تريد تكون على ثقة تريد أن تقف على أرض مستقرة احفظ، النبي عليه الصلاة والسلام أمر بحفظ القرآن وأمر بحفظ السنة (نظّر

الله امرءا سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها)، ثم المسلمون ساروا على هذه السنة، الحفظ يحفظ المعلومات ولا شك أن علماءنا رحمهم الله وربما يكون في بعض أفراد العلماء شيء من القصور البشري، يعني بعضهم يغلب عليه الحفظ وبعضهم يغلب عليه الفقه هذا أمر موجود، لكن الطريق العام والقدر المشترك والمتفق عليه أن الحفظ مؤيد للفهم، فالحفظ مساعد وليس هو الأصل، فالحفظ وحده لا يجعلك فقيها لكنك لن تكون فقيها إلا بقدر من الحفظ، إذا علماؤنا بحمد الله كانوا على موقف وسط في أمر الحفظ في التوازن بين الحفظ والفهم، أقول هذا لأننا نشهد اليوم من بعض التربويين من لا يفتأ يلمز الحفظ ويعيب الحفظ ويسميه بأسماء منفرة كالتلقين، وهذا عن الصواب بمعزل، لابد من الحفظ، لو سألنا أصحاب العلوم الأخرى ألستم تحفظون قوانين مثلا قوانين الفيزياء، ألستم حينما تريدون تعلم لغة أخرى تحتاجون إلى حفظ المفردات وحفظ القواعد، ألستم حينما تتعلمون قواعد الرياضيات تحفظون قوانين، إذا الحفظ أمر لابد منه ،لكن نحن في منهجنا الفقهي وطريقة علمائنا وسلفنا لم يكونوا يقولوا إن الحفظ هو كل شيء، بل الحفظ أمر لا بد منه، ولكنه مكمل للفهم.

أيضا من مسالك التكرار: استذكار العلم وتعاهد العلم، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل وإن أطلقها ذهبت)، يقول ابن عبد البر رحمه الله في هذا الحديث دليل على أن من لم يتعاهد علمه ذهب عنه، أي علم كان، لأن علمهم كان ذلك الوقت القرآن لا غير، وإذا كان القرآن الميسر للذكر يذهب إن لم يتعاهد فما ظنك بغيره من العلوم.

من مسالك التكرار في سيرة علمائنا رحمهم الله: الاختصاص، وأعني بالاختصاص ما يسمى ويعبر عنه اليوم بالتخصص، فمن أراد ملكة الفقه فليقبل على الفقه أما من أراد أن يكون ذا ملكة صادقة في الفقه وأن يكون مع ذلك ذا ملكة تامة في الحديث وأن يكون ذا ملكة تامة مثلا في البلاغة وفي علوم اللغة وغيرها، فإنه في غالب طبيعة الناس لا يبلغ مراده، فلا بد من التخصص، ولا نعني بالتخصص التخصص الذي يكون به الإنسان أجنبياً جاهلاً بغير العلم الذي تخصص به، فهذا ليس تخصصا وليس من طريقة العلماء، بل التخصص هو أن يولي جل عنايته علما ما، ولنقل علم الفقه وأن يضرب بنصيب كاف في كل العلوم التي يتوقف عليها الفقه، فيكون له معرفة بالقدر الذي لا بد منه في علم الفقه، بل نقول إذا كان الإنسان يروم أن يفتي وأن يجتهد في النوازل فالعلوم الشرعية لا تكفي، بل لا

بد أن يكون له نصيب من علوم المعيشة وعلوم العصر وعلوم الحياة، وهذا لا يخرجه عن التخصص، فالعلم الواحد أيها الأخوة لا ينتج، العلوم إنما تتكامل وإنما تتلاقح وبذلك تنتج المعرفة.

أيضا من مسالك التكرار في سيرة علمائنا الاستمرار في طلب العلم: ألا تقف، لا تقول أنا تخرجت من الجامعة أنا الحمد لله حفظت أنا وصلت الكتاب الفلاني أنا نلت درجة الدكتوراة، متى ظننت أنك بلغت العلم فقد انقطعت، فلا بد من الاستمرار.

أختم بمسلك من مسالك التكرار في سيرة علمائنا: وهو تقدم السن، تقدم السن مزية من المزايا المرجحة للعالم، لماذا؟ لأن تقدم السن لمن كان على جادة العلم وجادة البحث والتقوى والتعليم والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى لا تزيد المتقدم في السن إلا رسوخاً ولا تزيده إلا تجربة ولا تزيده إلا ثباتاً، إذن تقدم السن يعطيك تكرار، فأنت ما دمت على سبيل العلم فلا تزداد إلا خيراً إذا تقدمت بك السن، والأدلة على ذلك كثيرة، لكن أقتصر منها بأن النبي عليه الصلاة والسلام عاب الخوارج بأنهم حدثاء الأسنان، وهذا له دلالة من كلمات السلف، يقولون: لن يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم. وطبعاً الأكابر فسرت بتفاسير لكن منها السن وهذا معنى صحيح، في علم النفس يقولون خلايا الدماغ التي تمد الذكاء تقف عند سن الثامنة عشرة، بعد الثامنة عشرة خلاص تم نمو الانسان، وإنما يفضل الكبير الصغير لكثرة تجاربه، لا فرق بين من بلغ خمسين أو ستين وبين من بلغ عشرين إلا أنه جرب، أما العقل لو طرح لغز ما فيه تجربة ومعرفة فقط عقل محض فلا فرق بين الكبير والصغير، ولذلك مزية السن ليست فضيلة في نفسها وإنما هي مظنة للفضيلة، ولذلك فإن تقدم السن إنما يكون مفيداً بمقدار ما يأمر المرء عمره بالعلم والخبرة النافعة، أما إذا كان تقدم السن لا يزيده والعياذ بالله إلا غفلة وإعراضا عن العلم، فإنه كل ما تقدم به السن ازداد نسيانه، وعندئذ يقال كما قال الشاعر:

وإن كبير القوم لا علم عنده *** صغير إذا التفت عليه المحافل

هذا ما أردت أن أعرضه بين أيديكم في شأن الملكة الفقهية نسأل الله الكريم سبحانه وبحمده أن يمن علينا بالفقه في الدين وأن ينور بصائرنا بالعلم والحكمة التي جاء بها نبيه صلى الله عليه وسلم، في هذا المجلس تحدثنا أولا عن ما الملكة وعرفنا أنها الصفة الراسخة في النفس، وتحدثنا عن أمور في حقيقة ملكة منها تعريف الملكة الفقهية وأنها الصفة الراسخة في النفس التي يقتدر بها صاحبها على معرفة الأحكام

الشرعية وتطبيقها في الوقائع، تحدثنا عن بعض التفاصيل والفروع في هذا المقام ثم انتقلنا إلى الجانب الآخر: وهو شروط اكتساب الملكة الفقهية، ويمكن أن نقول أن شروطها أربعة: الاستعداد الفطري، والعناية بالأصول والكليات، والممارسة المباشرة، والتكرار، وعلمنا قبل ذلك أن هذه شروط لا تكسب الإنسان الملكة إلا بسبب، وهو أن يمنحك الله سبحانه وتعالى وأن يقسم لك من علمه ومن حكمته، ولذلك لا يستغني طالب هذا العلم الشريف علم الوحي إرث النبي عليه الصلاة والسلام، لا يستغني عن اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى واستمداد العلم منه وأن يجعل قلبه صالحا وقابلا للزكاة، الله تعالى يقول عن القرآن الكريم ﴿إنه لقرآن كريم ۝٧٧ في كتاب مكنون ۝٧٨ لا يمسه إلا المطهرون ۝٧٩﴾الواقعة، فهذا النور لا ينزل إلا في قلوب تصلح له، فلا يجوز بحال أن ينفك تعلم الفقه وتعليمه عن إصلاح هذه القلوب وتزكيتها، أقول قولي هذا وأستغفر الله تعالى لي ولكم.

أصل هذي الورقة لقاء علمي أقامته ممثلية الجمعية الفقهية السعودية بجامعة الملك سعود (عن بعد) بتاريخ ١٤٤٧/١٠/٢٥هـ
وتم نشره مسجلا على قناة الجمعية في اليوتيوب